مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 12 عدد: 1، مارس 2023
ص: 479 - 493 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

مركزية الهامش وهامشية المركز في القصيدة العباسية ـ بائية ابن الرومي نموذجا ـ

The marginality of the center and centrality of the margin in the Abbasid poem - Ba'iyah Ibnal-Roumi as a model

فريد عوف *
Farid Aouf
جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل. الجزائر.
University of Mohammed Seddik Benyahia . Jijel. Algeria
aouffarid@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2022/08/03	تاريخ القبول: 2022/11/04	تاريخ النشر: 2023/03/02

ملخص البحث

إذا كان العصر العباسي هو عصر الرخاء الاقتصادي ، فإنّه من الناحية الاجتماعية عرف فوضى واضطرابا وتناقضات الحياة التي خرجت عن المنطق والمألوف من خلال اختلال موازين الحياة واضطراب المعايير الاجتماعية، وفساد أحوال المجتمع، حيث علا السافل، وسُفّل العالي، وهُمّش الرفيع، وسُيّد الوضيع، واحتلّ الهامش مرتبة المركز، وهذا ما صوّره لنا ابن الرومي في بائيته المشهورة التي يعاتب فيها أبا سهل بن نوبخت، وهي موضوع دراستنا التي تروم إلى اكتشاف الفوارق الاجتماعية والطبقية التي تجلّت في هامشية المركز، ومركزية الهامش، وذلك بالاعتماد على مقاربة نقدية حديثة وهي النقد الثقافي لكون الهامش والمركز من المصطلحات أكثر دورانا في النقد والدراسات الثقافية.

الكلمات المفتاح : هامش، مركز، مجتمع، طبقية، اضطراب، شعر.

Abstract :

The Abbasid era was the era of economic prosperity, however from a social point of view it knew chaos, disorder and life's contradictions that deviated from logic and the usual through life imbalances, social standards disorder and social corruption as lower people were promoted , higher people were lowered and marginalized and less important things were given more importance. This is what Ibnal-Roumi portrayed to us in his famous poem in which he blamed Abu Sahel bin Nobakht and this is the subject of our study which aims to discover social and class differences which were manifested in the "marginality of the center and centrality of the margin". This is based on a modern critical approach, which is cultural criticism, because margin and center are the more rotating terms in criticism and cultural studies.

Key words: margin, center, society, class, disorder, poetry

* فريد عوف. aouffarid@hotmail.fr

مقدمة:

الحديث عن المركز والهامش من المصطلحات القديمة، وهما أكثر دورانا في العلوم و الدراسات السردية، والنقد- ثقافية؛ فقد كان للنقد الثقافي واسع الفضل في الالتفات إلى المهمش والمغيّب والمختلف، ، هذه الثنائية التي انحدرت من العلوم التجريبية- كالهندسة والفيزياء، حيث تمثّل النواة مركزا، وما يحيط بها هامشا- إلى الآداب و العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويعني أنّه في مجتمع معين ذي مجموعاتٍ متعدّدة الثقافات والأعراق، تشكّل إحدى هذه المجموعات مركزًا يمارس سلطة ثقافية، وسياسية واجتماعية على باقي المجموعات التي تؤدّي دور الهامش.

واتصلت ثنائية المركز والهامش بالأدب و بالنقد اتصالا وثيقا، وخاصة جنس الرواية التي ترتكز أساسا على الشخصيات التي تدخل في حلبة الصراع لتفرض مكانتها ووجودها وهيمنتها ، قد يكون المركز (السلطة) تحاول بأساليب القهر والعنف إخضاع الهامش (الشعب) إلى أوامره، وقد يقابل الهامش بالقوة فيسقط المركز ويحتل مكانته، وهكذا..وعلى ضوء هذه المقاربة النقدية الثقافية يتعامل الناقد مع النص "ليس بوصفه نصا جماليا بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر ما هو مضاد للمعلن في النص الأدبي ويقصي الجانب الجمالي ووظيفته الشعرية لأنه يؤدي إلى العمى الثقافي الذي يجعلنا نرى أن نكتشف الحيل الثقافية التي يتوسم بها لتمرير أنساقه المضمرة".

أمّا في الشعر، فقد تبلورت هذه الثنائية مع الشعراء المهمشين كالصعاليك في الشعر الجاهلي الذين ثاروا على حياة الفقر والضنك، و على المركز لاستيلاب حقوقهم.

وتدور إشكالية هذه الدراسة على شاعر من العصر العباسي، وهو ابن الرومي (221هـ-284هـ)[1] الذي نشأ في زمان –قال عنه العقاد في كتابه (ابن الرومي حياته من شعره) أنّه "كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة، ...كان أوان النور وكان أوان الظلام"، ومن هنا ليس من الغريب أن يكون هذا العصر مليئا بالتناقضات الاجتماعية، وأن يكون شعر ابن الرومي سجلا خالدا للصراعات والمشاحنات التي جرت بين المركز (السلطة) والهامش (الرعية)، وتصويرا فنيا لكلّ أشكال الاستبداد والقهر في العقد الثالث من العصر العباسي من قبل الخلفاء العباسيين ليمدّوا عمر حكمهم ، ويبسطوا نفوذهم على إمارة الدولة العباسية. والسؤال الذي يفرض نفسه : هل كان ابن الرومي مواليا للمركز فيكون شأنه شأن شعراء البلاط، أم كان محاميا للمهمشين، مدافعا عن حقوقهم المسلوبة ؟ وهل كان ابن الرومي شاعرا مهمشا؟

وللإجابة عن تلكم التساؤلات ارتأينا اختيار مقتطفات من نموذج شعري من ديوان ابن الرومي، وهي قصيدة يمكن إدراجها ضمن الشعر الاجتماعي ، يعاتب فيها أبا سهل بن نوبخت[2]، مطلعها[3]:

أحمدُ الله حمد شاكر نُعمى قابل شكر ربّه غير آب

وقد فرضت طبيعة الموضوع اختيار مقاربة نقدية ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة وهي النقد الثقافي لملاءمتها الموضوع؛ لأنّ من مجالات البحث والدراسة في هذا المنهج: "المركز و خطاب الهامش"، وعليه بنينا خطة هذه الدراسة على ما يلي:

*مقدمة.؛ وفيها الإشكالية، والمنهج والخطة والأهداف والنتائج.

* بسط مفاهيمي للمفردات الواردة في الدراسة كمفهوم المركز والهامش وحضورهما في النقد الثقافي الغربي والعربي.

*أمّا الجانب التطبيقي فهي دراسة لمقطع من قصيدة ابن الرومي وثقافة الاختلاف والصراع الطبقي بين قوى المجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري والثنائيات الضدية (علماء-جهلاء، أغنياء- فقراء، سادة- عبيد...) التي تحمل في طياتها أنساقا مضمرة تتمثّل في ثقافة التمرّد على الآخر، على الإقصاء، وعلى التهميش..

ولم يسبق عهد بهذه الدراسة عند الباحثين السابقين وفق هذه المقاربة باستثناء دراسة موضوعية وفنية للقصيدة من قبل الباحثة أمينة عبد المولى الحراحشة "جدلية الذات والآخر دراسة في بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن أبي نوبخت" وذلك في مجلة حوليات الآداب واللغات (المسيلة)، المجلد1، العدد1 بتاريخ:15 /2013/10.

أولا: الجزء النظري (بسط مفاهيمي للمفردات الواردة في الدراسة):

1-مفهوم المركز:

تتّفق المعاجم العربية على أنّ كلمة "مركز" هي الموضع ووسط الشيء، فقد جاء معناه في (لسان العرب) بأنّها كلمة مشتقة من الفعل" ركز، الركز هو غرزك شيئا منتصبا كالرمح و نحوه، والمراكز هي منابت الأسنان، ومركز الجند هو الموضع الذي أمروا أن يلزموه وأمروا أن لا يبرحوه، ومركز الرجل هو موضعه. يقال أخل فلان بمركزه، ومركز الدائرة هو وسطها..."[4].

كما تعني "الاستناد والتوكّأ "مصداقا لقوله تعالى: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ (طه، الآية 18)[5].

أمّا في المعاجم الأجنبية فقد جاء معناها في معجم (لاروس الفرنسي) أنّ أصل كلمة "مركز" « centre » من اللاتينية" centrum " والإغريقية "kentron" وتعني "اللدغة ، الشعاع"، وضدّها "الحافة - الأطراف - المحيط "، ولها عدّة معاني منها: رياضيا هي القطب في الشكل الهندسي ، واجتماعيا مكان يتجمع فيه الناس (مركز إيواء اللاجئين)، واقتصاديا مركز تجاري، صناعي، كما تدلّ على تنظيم مخصص لمجموعة من الأنشطة مثل: المركز الوطني للبحث العلمي. وفي التحليل الماركسي المركز هو المكان الذي تنطلق منه قوى الهيمنة نحو المناطق الأخرى (المحيط) ، خاصة تجاه البلدان المتخلفة"[6]. ومن هذا المعنى الأخير يكتسب "المركز" دلالته الاصطلاحية المتصلة بالأنساق الثقافية والإيديولوجية، حيث فيه إشارة إلى الصراع الطبقي بين المركز

(الغرب)، والهامش "العالم الثالث"، واستلاب القوي (الاستعمار) للضعيف (الشعوب المستعمرة) في المجتمعات المتخلفة.

وقد تعددت المفاهيم الاصطلاحية للمركز حسب التوجهات الايديولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للباحثين نلخّصها فيما يلي:

أ/ المفهوم الاجتماعي:

المركز هو "تعبير يستخدمه علماء الاجتماع بمفهوم اجتماعي وجغرافي، للدلالة على العلاقة القائمة بين قلب القوة والثقافة لمجتمع ما ومناطقه المحيطية"[7]. ويشير هذا المفهوم إلى الصراع الطبقي بين فئتين متقابلتين منذ القدم، وهما فئة "الأسياد" وهم يمثلون "المركز"، وفئة العبيد من الفقراء والمستضعفين هم (الهامش)، والنظم السلطوية التي بيدها القرار. وقد استعمل مصطلح "المركز" بداية القرن التاسع عشر في فرنسا عندما فرضت الحكومة هيمنتها على المنظمات السياسية والنقابية والجمعيات.

ب/ المفهوم القانوني:

يرى كيلسن « Kelsen » أنّ المركز هو "القانون الأمثل بكلّ معاييره"[8]؛ لكون القانون هو القوة التي تنظم المجتمع ، وتتحكم في الأفراد، وهو النظام الذي يجب الامتثال له، ولذلك أخذ القانون صفة المركزية، فكلّ أفراد المجتمع يعودون إليه.

ج/ المفهوم الاقتصادي:

ارتبط مفهوم المركز بتطوّر الاقتصاد العالمي في القرن التاسع عشر، وتقسيم الدول إلى عالم متقدم وهو العالم الغربي الصناعي، ودول نامية، ودول سائرة في طريق النمو وهي دول العالم الثالث، وهذا التقسيم رسم خريطة الطريق لدول المركز بغية فرض هيمنتها على الدول المتخلفة التي تعاني من الإحباط والتهميش والاستعباد والتبعية للغرب في إطار علاقة المغلوب بالغالب (المغلوب مولع بتقليد الغالب...) على حدّ قول ابن خلدون. وعلى هذا النحو تتحوّل السلطة المركزية إلى القوى الاقتصادية العظمى في العالم الغربي، وتصبح مركز اتخاذ القرارات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تشكل كلّ جوانب الحياة، والذي جاء نتيجة لتطور اقتصاد السوق..إذن فدول المركز هي قمة التكنولوجيا في العالم، وتشمل كلّ من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي، والصين.

د/ المفهوم الثقافي:

المركز هو الثقافة السائدة الرسمية التي احتلت من البنية الاجتماعية مركزها، وفرضت نفسها بالقوة والقانون كنموذج يحتذى به، وبالمقابل هناك ثقافة أخرى هي ثقافة الهامش تمشي في استحياء خشية قمع المركز لها.

هـ/ المفهوم النقدي :

مفهوم (المركز) في منظور النقد الثقافي هو الذي يبحث عن الأنساق الثقافية المضمرة في الأدب الرسمي (أدب المركز)، و (أدب الهامش) من أجل فهم الثقافة بكلّ أشكالها المركبة والمعقّدة، وتحليل السياق الاجتماعي والسياسي للخطاب،ويعدّ ميشال فوكو أوّل من نقل (الهامش) من الحقل الاجتماعي إلى حقل اللغة من خلال تعبيره عن (المسكوت عنه) وخطاب التهميش والإقصاء.

و/ المفهوم الأدبي:

ويطلق مصطلح (أدب المركز) على الأدب الرسمي الذي يعبّر عن الطبقة العليا في المجتمع، ويسمى بـ(أدب البلاط) كالأدب الكلاسيكي، فالأدب المركزي هو أدب البلاط، الذي يشتغل بحياة الترف التي يحياها الخاصة من الساسة ورجال الدين.

2. مفهوم الهامش:

لا يمكن فهم الهامش من غير فهم المركز، فهما ثنائيتان ضديتان، فالمركز يطلق على كلّ شيء أساسي، والهامش على كلّ شيء جانبي أو ثانوي، فقد جاء في (معجم اللغة العربية المعاصرة): **"همش يهمش، همشا، فهو هامش/همش الرجل: أكثر الكلام في غير صواب/ همّشَ، يهمّشُ تهميشا فهو مُهمّشٌ، والمفعول مُهمَّش/ همّش الكتاب ونحوه: أضاف ملاحظات على هامشه أو حاشيته/ همّش الموضوع: جعله ثانويا، لم يجعله من اهتماماته المباشرة والملحة...وهي اسم فاعل من همش جزء خال من الكتابة حول النص في الكتاب المطبوع أو المخطوط/هامش الأمر: خارج عنه أو بمعزل منه ـ فلان يعيش على الهامش: منفرد غير مندمج في المجتمع، مهمل، منعزل..."**[9].

ويحيل مصطلح (الهامش)« Marge » في المعاجم الأجنبية إلى المعنى نفسه المتداول في المعاجم العربية، فهو كلمة ـ حسب معجم لاروس الفرنسي ـ من أصل لاتيني **(latin margo, -inis) وتعني ترك مساحة بيضاء حول أو على جانب واحد فقط من النص المكتوب بخط اليد أو المطبوع: التعليقات التوضيحية التي تم إجراؤها في هوامش المهمة**[10].

أمّا المفهوم الاصطلاحي فلا نكاد نجد تعريفا يشفي الغليل باستثناء بعض التعاريف المتداولة نذكر منها:

أ- المفهوم الاجتماعي:

يُطلق الهامش على عامة الناس من الأفراد والجماعات الذين وضعت لهم موانع للحصول على حقوقهم بسبب التمييز والإقصاء الاجتماعي، والتهميش، هذا الأخير الذي عرّفته الباحثة "مي مجيب عبد المنعم بقولها: **"هو عملية الاستبعاد من المشاركة الفعالة في المجتمع"**[11].

وواضح من هذا المفهوم أنّ الباحثة قدّمت مفهوما للتهميش لا الهامش، فالسلطة المركزية تفرض قيودا على الفئة الدنيا من المجتمع لعزلها عن معترك الحياة السياسية والاجتماعية.

ويرى حبيب العايب أنّ هناك تعريفات أساسيّة متّفق عليها، وهي تكاد تكون تعريفات لغويّة معجميّة, ويطرح سؤالاً : أين يوجد الهامش؟ ويُجيب : يوجد خارج المركز، فمقابل الهامش هناك المركز، ففكرة الهامش بلا "مركز" لا معنى لها، أي أنّ المُهمَّش لا يمكن أن يكون مهمّشاً في حدّ ذاته، بل بالنّسبة إلى حالة أو وضع مركزيّ، ويُضيف : يمكن أن نتحدّث عن قرية أو منطقة أو بلد مهمّش مثلاً، ويمكن أن نتحدّث عن فئات مُهمّشة في مكان مُحدّد، وتهميش المكان قد يرتبط بتهميش فئات اجتماعية مُحدَّدَة[12].

ب/المفهوم الأدبي:

سميّ الأدب الذي يصدر من العامة بأدب الهامش، وهو كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم أكاديمية، وهو أدب متمرّد على السلطة المركزية والتقاليد المعروفة، و بتعبير توفيق الحكيم هو "أدب الشعب"، غايته الإطاحة بالمركز، والثورة على الظلم والتفاوت والجور والطبقية في المجتمع، وأخذت الرواية العالمية خاصة في مرحلة ما بعد الحداثة حيزا كبيرا في الحديث عن التهميش والمهمّشين والمسكوت عنهم، إلى جانب الشعر والمسرح والمقال، فسُميّ أدبهم بأدب الهامش. والحقيقة أنّ ليس كلّ أدب يعبّر عن حياة المستضعفين هامشيا، لأنّ الأدب سواء أكان للمركز أو الهامش نجد فيه الرفيع والوضيع، الغث والسمين.

3- ثنائية المركز والهامش والنقد الثقافي:

المركز والهامش صنوان متلازمان، فهما يجسدان الصراع الأزلي بين قوى الخير والشر، القوي والضعيف، الشريف واللئيم، الرفيع والوضيع منذ أن خُلق الإنسان على سطح الظهيرة، ففي الجاهلية كان الصراع بين السادة والعبيد، وفي العصر الحديث بين البيض والسود، وبين الشرق والغرب...

ولقي المصطلحان اهتماما كبيرا في الكتابة الإبداعية العالمية والعربية، وخاصة في مرحلة ما بعد الحداثة، حيث جنّدت أقلام إبداعية نفسها للحديث عن المسكوت عنه، والثورة على البيروقراطية والتعسف والتميز العنصري والتهميش، سواء أكان بواسطة الشعر أم النثر أو السرد.

والنقد الأدبي بوصفه تابعا للعمل الأدبي سخّر أجندته لوصف تلك الأعمال الإبداعية لا من الناحية الجمالية والبلاغية فحسب، بل البحث عمّا تضمره تلك الأعمال من أنساق ثقافية وترسبات إيديولوجية، ومعرفية، تلكم هي مجال الدراسة في النقد الثقافي.

إذًا، فالنقد الثقافي كان مجال بحثه واسعا، فهو يتناول الخطاب ـ سواء أكان للمركز أم الهامش ـ بالتحليل وتفكيك المضمرات الإيديولوجية الثقافية التي أنتجت النصوص، ويعود الفضل للنقد الثقافي في "الاهتمام بالمهمل والمهمش وتوجهه نحو نقد أنماط الهيمنة مما فتح أبوابا من البحث ذي الاتجاه الإنساني النقدي الجريء والديمقراطي"[13]، وبذلك قدّم للنقد الأدبي ما لم تقدّمه المناهج النسقية، حيث كان فاتحة عهد للدراسات ما بعد الكولونيالية التي خاض غمارها إدوارد سعيد في تحليل الصراع بين الشرق الهامشي، والمركزية الغربية، و من رحم هذه الدراسات ظهرت أعمالا أدبية ونقدية تهتم بأوضاع المهمشين، وتدعو إلى إعادة الاعتبار لهم.

ثانيا: الجزء التطبيقي (تجليات الصراع بين المركز والهامش في بائية ابن الرومي):

بعد هذا البسط النظري لتقريب المفاهيم ننتهي إلى مقتطفات من قصيدة ابن الرومي في رحلة البحث عن الأنساق الثقافية المضمرة التي تعكس بيئة الشاعر وما شاع فيها من صراع طبقي بين المركز والهامش.

1- الإيكولوجية الثقافية (بيئة الشاعر):

تمثّل البيئة أو الإيكولوجية الثقافية عنصرا أساسيا في النقد الثقافي الذي يعكف على استنطاق النصوص المطموسة في المجتمع، النصوص المقموعة والمهمشة والمحتقرة باعتبارها لا تنتمي إلى المعتمد الرسمي المدروس في النقد الأدبي من قبل جماعة اجتماعية من النخبة، تخدم مصلحة أو طبقة معينة. إنّ النقد الثقافي جاء ليحرّر النصوص الأدبية من سيطرة البنيوية، ولتكون أكثر انفتاحا على الواقع، ويعزّز القراءة بآليات تتغذى من السياق السياسي والاجتماعي والثقافي، ويسعى إلى أنسنة الأدب.

وقصيدة ابن الرومي تكشف لنا معالم ثقافة بيئية عاشها الشاعر في زمانه (القرن الثالث الهجري)، وهو عصر أكثر ما يمكن القول عنه: إنّه عصر مليء بالتناقضات الاجتماعية على الرغم ما شاع عنه بأنّه عصر الرخاء الاجتماعي، ولمعرفة هوية هذه الحقبة الزمنية من خلال القصيدة، نستدلّ بما قاله عباس محمود العقاد عن بيئة الشاعر في كتابه (ابن الرومي حياته من شعره) إذ يقول: "إن كان لكلّ دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث الهجري كان أوان النماء للدولة العباسية جاء بعيد التمهيد وقبيل النضج والذبول، ففيه نما وأزهر كلّ ما بذره مؤسسو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد..."[14]. تُرى هل هناك علاقة بين مقولة العقاد، وقصيدة ابن الرومي؟ بكلّ تأكيد. يقدّم ابن الرومي في مطلع القصيدة "مفارقة لم يشهدها من ذي قبل، ويضعنا أمام تناقض شديد من تناقضات الحياة التي تخرج عن المألوف والمنطق، و يتمثّل في اختلال موازين الحياة واضطراب المعايير الاجتماعية التي تسود كلّ مجتمع؛ فأصحاب العقول السخيفة والجهلة من الناس أصبحوا في أسمى المراتب بل أصبحوا من أصحاب النفوذ والسيادة، ووصلوا إلى مراكز حساسة في الدولة و أجهزتها"، يقول ابن الرومي:[15]

طار قومٌ بخفَّة الـوزن حتى لحقوا رفْعَةً بقاب العُقـــابِ

وفي المقابل ثبت أهل العلم والأدب وذوي العقول الراجحة في مكانتهم ثبات الجبال في موضعها بسبب الإقصاء والتهميش والمحاباة، إذ حُرموا من المشاركة في بناء المجتمع، يقول ابن الرومي[16]:

ورسا الراجحـون من جِلَّةِ النا سِ رسوَّ الجبال ذات الهضـابِ

ويعقّب الشاعر على تلك المكانة التي نالها هؤلاء السفهاء بالنفي والقسم ، بأنّها طفوّ؛ وعلميا الأجسام الخفيفة تطفو على سطح الماء لخفتها كشأن هؤلاء القوم ، لأنهم حازوا عليها بطرق غير شريفة، حيث قال[17]:

لا أعدُّ العلـوَّ منهم عُلـواً بل طُفُوّاً يمينَ غيرِ كِـذابِ

فهؤلاء القوم الذين احتلّوا المركز وهم أحطّ منزلة كالعبيد بأخلاقهم السافلة فهم كالجيف النتنة، وتجارهم مثل البهائم، ليس فيهم من يحمي الشرف، ولا قائم بتعاليم الإسلام، جبناء، شيمتهم الغدر والخيانة، فهم كالكلاب، والكلاب أوفى منهم، بل هم كالذئاب، يقول ابن الرومي[18]:

جِيفٌ أنتنت فأضحتْ على اللهْ جَة والدُّرُّ تحتها في حجابِ
وتجارٍ مثل البهائمِ فازوا بالمنى في النفوس والأحبابِ
ليس فيهم مُدافعٌ عن حريمٍ لا ولا قائمٌ بصدر كتابِ
من أناس لا يُرتضون عبيدا وهم في مراتب الأربابِ
من كلابٍ نأى بها كلّ نأيٍ عن وفاءِ الكلابِ غدرُ الذئابِ
وإثباتٍ على الطِّباء ضِعافٍ وعن وِثاب الأسود يومَ الوِثابِ

وفي الأخير يختم الشاعر قصيدته بصيغة الدعاء "قاتل الله دهرنا" ، لأنّه زمن انقلبت فيه الموازين، إذ أناس أنذال ينعمون في السعادة والغنى والمال والجاه، ولباسهم حرير، و الفقراء يعيشون في الظلم والعوز وبسطهم تراب، يقول الشاعر[19]:

قاتَل اللّهُ دهرَنا أو رماهُ باستواءٍ فقد غدا ذا انقلابِ
لا يَعُدُّ الصوابَ أن تغمر الثرْ وةَ إلا ذوي العقولِ الختارَابِ
وإذا ما رأى لحامِلِ علمٍ قوتَ يومٍ رآه ذا إخصابِ

2- الصراع الطبقي وجدلية الأنا والآخر في بائية ابن الرومي:

يعكف النقد الثقافي على دراسة ثنائية الأنا والآخر في الخطاب بعد تطوّر الدراسات والأبحاث الثقافية في مرحلة ما بعد الحداثة، وتنامي الدعوة إلى الاهتمام بـ (الآخر) لرفع الظلم عن (الهامش) وكلّ أشكال التسلط والهيمنة المفروضة عليه.

إنّ مفهوم (الأنا) و (الآخر) أي الذات والآخر واسع لتعدّد مجالات استعمالها كالذكر والأنثى (المرأة والرجل) في الأدب النسوي، (المركز والهامش) (الشرق والغرب) في النقد والدراسات الثقافية، وغيرها. و"يعني مفهوم (الآخر) كلّ ما هو (غيري) أي ما هو خارج نطاق الذات...فالواقع المعرفي يرشدنا إلى أنّ كلّ ما هو خارج الذات الفردية هو الآخر بالنسبة لتلك الذات، وكلّ ما هو خارج الذات الجماعة الفكرية أو العقائدية هو الآخر بالنسبة لتلك الجماعة..."[20].

تبدو معالم الصراع الطبقي ـ بالمفهوم الماركسي المعاصر ـ واضحة في القصيدة بين قوى المركز (السلطة والأغنياء وذوي المال من التجار)، وبين (الهامش) من العلماء والفقراء، ويتأزّم الصراع بينهم، لأنّ (المركز) ارتقى إلى المراتب العليا بطريق غير شريفة، وهذا المخطّط يوضّح صورة الأنا والآخر في القصيدة، والعلاقة بينهما:

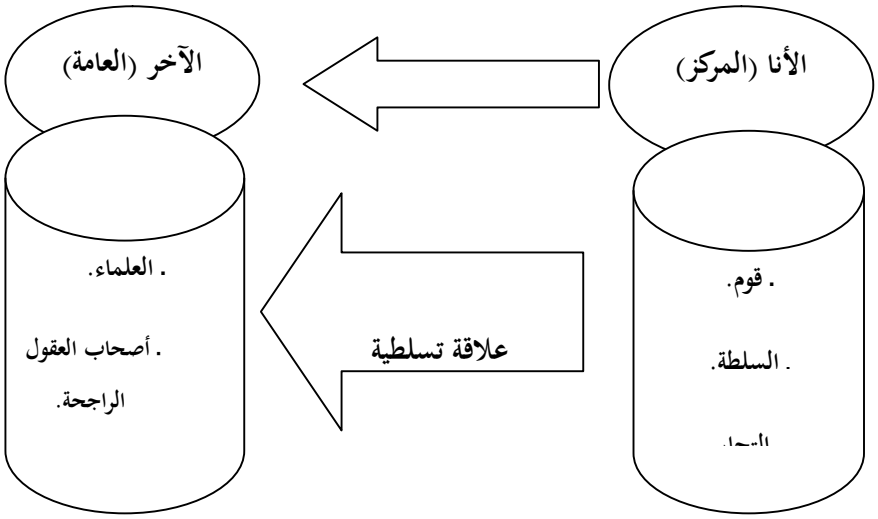

والثنائيات الضدية ظاهرة بارزة في القصيدة، وهي تجسّد هذا الصراع الطبقي، فقد اعتبرت "سمر ديوب" "الثنائيات الضدية وليدة فكر معرفي يتحرك وينسج مسار حركته، ويتشكّل تاريخيا، وثمة ثنائيات كثيرة لها أشد الحضور في حياتنا، فلا وجود لشيء دون نقيضه..."[21]. وتسمى في البلاغة العربية بالطباق والمقابلة والتضاد، وهذا رسم توضيحي للثنائيات الضدية في القصيدة:

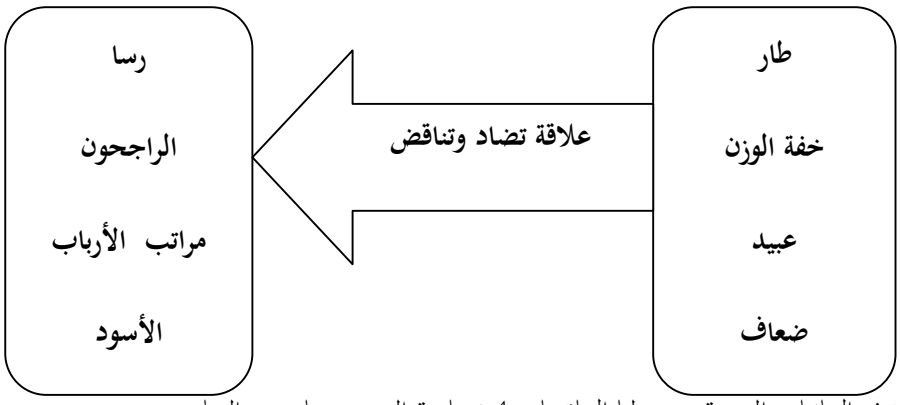

فهذه الثنائيات الضدية تصوّر لنا التناقضات الاجتماعية التي شهدها عصر الشاعر.

3- "التورية الثقافية " في بائية ابن الرومي:

التورية الثقافية مصطلح اقترحه (عبد الله الغذامي) ثم شاع في دراسات النقد الثقافي، ويعني به: أنّ الخطاب يحمل نسقين لا معنيين وأحد هذين النسقين واع والآخر مضمر في مقابل التورية البلاغية[22].

ويتحرك الناقد الثقافي في رحلة البحث عن الأنساق المضمرة أو التوريات التي تختبئ ما وراء اللغة، "عبر التخفي وراء أقنعة سميكة وأهم هذه الأقنعة وأخطرها هو قناع الجمالية أي أنّ الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخر غير الجمالية وليست الجمالية إلا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء وتحت كلّ ما هو جمالي هناك مضمر نسقي ويعمل الجمالي على التعمية الثقافية لكي تظلّ الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت القناع"[23].

فقصيدة ابن الرومي تمتع بقدر عال من جودة التصوير لترجمة أحاسيسه، فقد قال عنه صاحب (وفيات الأعيان): "صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة..."[24].

إنّ صورة (المركز) تبدو أكثر دناءة وحقارة، فالشاعر يضمر بغضا شديدا لقوم بلغوا مكانة غير مستحقّة، فهو يقدّم الصورة ثمّ يعقّب عليها، إذ يصف المتحدث عنه (قوم) جاء نكرة، ويستعير صورا للتعبير عن مشهد تحتقره النفوس وتزدريه القلوب:

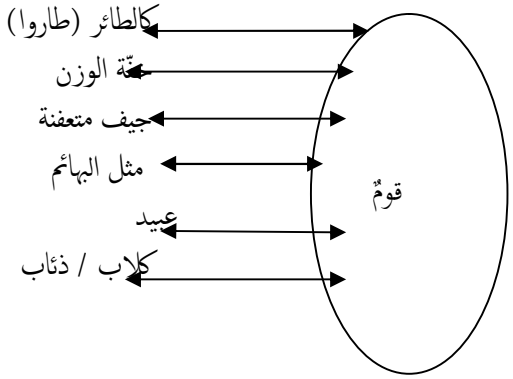

فهذه الصور تمثّل هجاء لاذعا لهؤلاء القوم الذي بلغوا مطامعهم بالمكر والخداع واستعمال نفوذهم.

وفي المقابل نجد صورة أهل العلم (الراسخون) ، عرّفها الشاعر بـ (أل) إجلالا وإكراما، لقوله تعالى: ((والراسخون في العلم يقولون آمنّا به)) (الأعراف53).

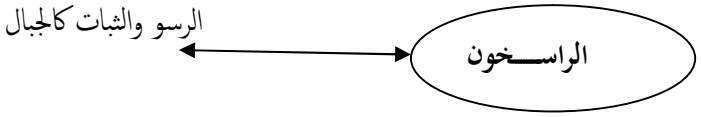

ومن التوريات الثقافية هناك تراكيب تحمل ظلالا ثقافية، وبُعدا فكريا، نحو قوله: (خفّة الوزن)، فهؤلاء القوم بلغوا الرفعة بدون جدّ أو كدّ، وطيرانهم وارتفاعهم كان نتيجة خفة الوزن، فالأشياء الثقيلة لا تطير. وقوله: (بلّ طفوا)، الشاعر يميّز بين العلوّ والطفوّ، فما بلغه هؤلاء السفهاء ليس علوا بل طفوا، هذا الأخير الذي يحمل دلالة الخفّة والموت. وقوله : (جيف أنتنت) الشاعر يصوّرهم بالجيف النتنة التي تطفو فوق سطح الماء،

ويجرّدهم من الفعالية والقيمة في الحياة. وتتوالى عبارات السخرية والتهكم والهجاء اللاذع، حيث يقول: (من كلاب نأى بها كلّ نأي)، فصوّرهم بالكلاب بل الكلاب أوفى منهم، وهم كالذئاب في الغدر. ويدعون القوة ، لكن هيهات، إذ يمارسون القهر والعنف والتسلط على المستضعفين كالأسود التي تختار من الظباء ضعافها، وغيرها، فهذه التراكيب تخفي واقعا اجتماعيا وثقافيا مرّا لمجتمع ظاهره الرخاء والرفاهية، غير أنّ واقعه الاستبداد والظلم والجور.

الخاتمة:

وفي نهاية هذه الورقة البحثية يمكن استخلاص جملة من النتائج هي:

- قصيدة ابن الرومي تحمل كثيرا من التوريات الثقافية أو الأنساق المضمرة للمجتمع العباسي، وما يشيع فيه من المتناقضات في القرن الثالث الهجري الذي كان -على حدّ تعبير العقاد- من أحسن الأزمان ومن أسوئها في آن واحد لتصدّع المنظومة الاجتماعية والثقافية للمجتمع العباسي من خلال استحواذ المركز على كلّ لوازم الحياة والعبث بالمال العام، وتهميش العلماء، وتقريب السفهاء.

- من القصيدة يتبين اختلال موازين البيئة العباسية من خلال الإخلال بثنائية المركز والهامش بجعل العبد سيدا، والسيد عبدا عن طريق المال والمحاباة، وهذا واضح في إبعاد العلماء، وتقريب السفهاء وأراذل القوم.

- تميّز ابن الرومي ببراعة الوصف والتصوير، فهو لا يكتفي بوصف المركز، بل يعبّر عن الحقيقة والموقف منه، ويلبسها ثوبا بلاغيا وجماليا عن طريق الكناية والتشبيه والاستعارة.

- تعدّ السخرية والهجاء من الأنساق المهيمنة في القصيدة، فالشاعر ينتقد الأغنياء وطريقة استيلائهم على الأموال بأساليب غير مشروعة، وشرائهم للذمم، وتأثيرهم على الناس بالمكر والخداع حتى بلغوا المراتب العليا التي لا يستحقونها.

-إنّ ابن الرومي كان من الشعراء المولدين الذين انحدروا من أصل غير عربي ، لذا عُرف بنزعته الشعوبية والانتقامية من العنصر العربي شأنه شأن بشار بن برد، فوجد في شعر الهجاء ملاذا للانتقام والتمرّد والثورة على الخلفاء العباسيين، فهو لم يكن من شعراء المركز، ولا من الهامش، وإنما عاش حالة الاغتراب واليأس والحزن لظروف مرّ بها في حياته نسفت بثروته، ممّا أثّر ذلك في شعره.

هوامش:

[1]- هو الشاعر العباسي **أبو الحسن علي بن العباس بن جُريج، المعروف بابن الرومي**. ولد سنة 221هـ/835م ببغداد، من أبٍ رومي و أمٍّ فارسية. كان مرهف الحس عصبيَّ المزاج وعاش معظم حياته قلقاً متشائما ضيّقَ الرّزق شديد الطيرة، لأنّه نُكِبَ في أسرته، ولمْ يلقَ حظوةً لدى أمراء عصره، ولمْ ينلْ عطفَ الناس وتقديرَهم. ملت ابن الرومي مسموماً -على الأرجح - سنة 284هـ/897م. من أهم آثاره: بعض الرسائل النثرية، وديوان شعر ضخم.

[2]- **أبو سهل إسماعيل بن عليّ بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت**، (311 -237هـ) أحد كبار البيت النوبختيّ بل من أشهرهم، كان من رؤساء الشيعة ووجهائهم، ومن العلماء الكبار، ويعدّ من أشهر شخصيات آل نوبخت، وبسبب منزلته العلميّة ومهامّه الدنيويّة، فكان من مشاهير المتكلّمين البارزين في هذه الطائفة في عصره المتزامن مع الغيبة الصغرى، وهو أحد الشعراء والمشجّعين على الأدب والشعر، ومن المصنّفين أيضاً ، فله تصانيف مهمّة في تأييد المذهب الإماميّ و دحض المناوئين .

[3]-ابن الرومي، الديوان، ج1، تح. حسين نصار، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ط3، 2003م، ص.ص279-287. وهذه هي مقتطفات من القصيدة لابن الرومي التي هي موضوع الدراسة:

طار قومٌ بخفَّـة الـوزن حتى لحقوا رفْعَةً بقاب العُقـــــابِ
ورسا الراجحون من جِلـة ِ النا سِ رسوَّ الجبال ذات الهضـــــابِ
لا أعدُّ العلوَّ منهم عُلـــواً بل طُفُوّاً يمينَ غيرِ كِـــــذابِ
جِيفٌ أنتنت فأضحتْ على اللكّ جَة والدُّرُّ تحتها في حجـــــابِ
وتجارٍ مثل البهائم فـــازوا بالمنى في النفوس والأحبـــــابِ
ليس فيهم مُدافعٌ عن حـــريمٍ لا ولا قائمٌ بصدر كتـــــابِ
من أناس لا يُرتضون عبيـداً وهم في مراتب الأربـــــاب
وكذاك الدنيا الدنيّةَ ُ قـدراً تتصدَّى لألأم الخُطـــــابِ
لهفَ نفسي على مَناكيرَ للنُك رِ غضابٍ ذوي سيوف عِضـابِ
من كلابٍ نأى بها كلَّ نـأيٍ عن وفاءِ الكلابِ غدرُ الذئـابِ
وإثباتٍ على الطِّباء ضِعـافٍ و عن وِثاب الأسود يومَ الوِثـابِ
قاتَل اللّهُ دهرَنا أو رمـــاهُ باستواءٍ فقد غدا ذا انقـلابِ
لا يَعُدُّ الصوابَ أن تغمـر الثرْ وةَ إلا ذوي العقولِ الخـرَابِ
وإذا ما رأى لحامِلِ علـــمٍ قوتَ يومٍ رآه ذا إخصـــابِ

[1] -ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، مج3، ط1، 1997م، ص113.

[2] -انطوان نعمة وآخرون، المنجد الوسيطفي اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 4371 .

[6]-DICTIONNAIRE DE FRANÇAIS LAROUSSE EN LIGNE

(135 000 définitions, 90 000 articles, 92 000 synonymes...) mot « CENTRE »

« nom masculin (latin *centrum,* du grec *kentron,* aiguillon, puis rayon)

- 1. Point tel que tous les points d'une figure sont symétriques deux à deux par rapport à ce point : Centre d'une ellipse.
- 2. Ce point et la région avoisinant ce point pour un espace, une surface quelconque ; milieu : Placer un bouquet au centre de la table.

Contraires : bord - extrémité - périphérie - pourtour

- 3. Lieu où sont rassemblées des personnes : Ouvrir un centre d'hébergement pour les sinistrés.
- 4. Ville, localité caractérisée par l'importance de sa population ou de l'activité qui y règne : Un centre ferroviaire, industriel.
- 11. Sur le plan politique, position, parti qui se situe entre la droite et la gauche.
- Anatomie

  12. Lieu d'un organe vers lequel convergent ou duquel émanent les dispositions structurales ou fonctionnelles qui confèrent son unité à cet organe et conditionnent ses relations avec l'ensemble de l'organisme.
- Économie

  13. Dans l'analyse marxienne, lieu d'où s'exercent des forces de domination vers d'autres zones (la périphérie), notamment vers les pays sous-développés.
- Mathématiques

  14. Synonyme de pôle.

  Télécommunications

  17. Lieu ou local rassemblant le matériel qui permet d'effectuer des operations de télécommunications (émission, réception, commutation, etc.)"

[7]- ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، تر.عادل مختار الهواري، سعد عبد العزيز خضلوح، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999م، ص99.

[8]-محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 2016م، ص.56

[9]- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج3، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م، ص ص 2365،2366

[10]- DICTIONNAIRE DE FRANÇAIS LAROUSSE EN LIGNE

(135 000 définitions, 90 000 articles, 92 000 synonymes...) mot « Marge »

nom féminin (latin *margo, -inis*)

- 1. Espace blanc laissé autour ou simplement d'un seul côté d'un texte manuscrit ou imprimé : Annotations portées dans la marge d'un devoir.
- 2. Écart entre une limite (espace, temps, quantité) absolue et une autre qu'on se donne pour disposer d'un délai, d'une quantité supplémentaire : Marge de sécurité. Marge d'erreur.

[11]- عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله، سودارس (محرك بحث إخباري)، نشر بتاريخ:15.07.2012، الرابط: https://www.sudaress.com/about

[12]- عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله، سودارس (محرك بحث إخباري)، نشر بتاريخ:15.07.2012، الرابط: https://www.sudaress.com/about

[13]- عبد الله الغذامي، النقد الأدبي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط3، 2005م، ص52 .

[14]- عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، ص11.

[15]- الديوان، ص279.

[16]-الديوان، ص279.

[17]- الديوان، ص279.

[18]- الديوان، ص ص 280- 282

[19]- الديوان، ص286.

[20]- سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، تعليق سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016م ص9

[21]- سمر الديوب، مصطلح الثنائيات الضدية، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج41، عدد1، سبتمبر 2012/، ص 116.

[22]- سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، ص75 و76.

[23]- المرجع نفسه، ص293.

[24]- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3 ،1977 م، ص358.

قائمة المراجع::

1/ابن الرومي، الديوان، ج1، تح. حسين نصار، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ط3، 2003م.

2/ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3 ،1977 م.

3/ ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، مج3، ط1، 1997م، ص113.

4/أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج3، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م.

5/ انطوان نعمة وآخرون، المنجد الوسيط في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط1، .2003

6/سمر الديوب، مصطلح الثنائيات الضدية، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج41، عدد1، سبتمبر .2012

7/سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، تعليق سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016م .

8/عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله، المنتدى العربي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، نشر بتاريخ: 18 نوفمبر 2015م ، الرابط: https://www.sudaress.com/about

9/عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله، سودارس (محرك بحث إخباري)، نشر بتاريخ:15-07-2012، الرابط: https://socio.yoo7.com/t3919-topic

10/ عبد الله الغذامي، النقد الأدبي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط3، 2005م.

11/محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 2016م.

12/ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، تر.عادل مختار الهواري، سعد عبد العزيز خضلوح، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999م.

13.DICTIONNAIRE DE FRANÇAIS LAROUSSE EN LIGNE

(135 000 définitions, 90 000 articles, 92 000 synonymes...) .